الاستقامة في الحياة؛ مبدأ قرآني

الكُتّاب: أحمد صبيح محمد اللامي (عراق)[1]، الشيخ حسن العالمي (ايران)[2]
استلام: ١٤٣٦/٢/٢٥ **قبول:** ١٤٣٦/٦/١٤

الخلاصة

في مقالتي هذه وددت الوقوف على واحد من المبادئ المهمة التي يرسمها القرآن الكريم ألا وهو مبدأ الاستقامة والثبات ذلك المبدأ الذي ينبغي أن يكون منهجا متقنا في حياة المسلم القرآني فوقفت مع هذا المبدأ في بيان مفهوم الاستقامة في اللغة والقرآن الكريم، ثم التعرض إلى أهم الموجبات التي يمكن أن يستعين بها الإنسان لتحقيق هذا المبدأ القرآني، ثم ما هي الثمرات المترتبة على التمسك بهذا المبدأ حتى نصل إلى نتيجة أن هذا المبدأ (مبدأ الاستقامة) هو ضرورة قرآنية ينبغي أن يكون هدف الأمة الإسلامية برمتها كي نحقق أرضية مؤهلة يشع منها العدل الالهي إلى أرجاء العالم تحت راية الإمام الحجة (عليه السلام).

المصطلحات الرئيسية: الاستقامة، الثبات، الموجبات، المبدأ، الثمرات.

المقدمة

إنَّ دستور المسلمين الإلهي – القرآن الكريم – يمثل منظومة متكاملة ترسم للإنسان الطريقة المثلى التي يجب أن نكون عليها ما دمنا في هذه الحياة تلك المنظومة التي تحتاج لدراسات مفصلة لتنظيم كل مفاصل حياة المسلم القرآني والمنتمي إلى الإسلام (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[3].

١- طالب في لجنة علوم القرآن والحديث، جامعة المصطفى المفتوحة، قم، ايران، allamy10@yahoo.com

٢- محاضر في لجنة علوم القرآن والحديث، جامعة المصطفىﷺ المفتوحة، قم، ايران، alimihasan@yahoo.com

٣- البقرة : ٢

فكل ما يرسمه القرآن الكريم هو في غاية الدقة والإتقان كيف لا وهو الصادر من علام الغيوب من حكيم عليم أتقن كل شيء صنعه. أريد أن أقف في مقالتي هذه عن واحدة من المبادئ التي رسمها القرآن الكريم ودعا إلى أن نتخذها منهاجا في حياتنا ألا وهو مبدأ الاستقامة والثبات.

فإنه يعد من المبادئ الإستراتيجية المهمة، وسأتناوله في محورين وخاتمة.

المحور الأول: يدور حول موجبات الاستقامة كي يتضح ما هي السبل التي تعين الإنسان في حياته كي يحظى بهذا المبدأ العظيم.

وفي المحور الثاني: نقف مع الثمار التي يمكن أن يحصل عليها من تحلى بهذا المبدأ (مبدأ الاستقامة).

ثم تتمة نقف فيها متأملين في موقف من مواقف النبي الأكرم الذي يتجلى به التطبيق العملي لمبدأ الاستقامة رغم كل ما مر به من ظروف وهو القائل "ما أوذي نبي مثل ما أوذيت".

وتكمن أهمية البحث في مبدأ الاستقامة في أمور ثلاثة:

١- أن الإنسان يخطو بعض الخطوات للأمام، ولكنه ما يلبث أن يتثاقل ويخلد إلى الأرض، كما يعبر القرآن الكريم، حيث ترديه الرياح المعاكسة والتيارات المضادة.

٢- أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان عندما يصل إلى سورة هود، يقول: شيّبتني هذه السورة، لآية فيها أوجبت ثقلاً بليغاً على قلبه الشريف، وهي قوله تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١]. فإذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) تشيبه هذه السورة، وهو المتحذر لكل الخطابات القرآنية، ليكون على مستوى التنفيذ الكامل لكل ما ورد من قبل الله ، فكيف بعامة المؤمنين!..

إن من خلال سيرة النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) نلاحظ: بأنه لم يحقق ما حقق إلا من خلال إستقامته في دعوة الناس، وصبره على مقارعة أعتى الجاهليات في تاريخ البشرية، حيث ظل ثلاث عشرة سنة، وهو يقاوم تلك المقاومة الكبرى، حتى كانت سنوات القطاف في المدينة، حيث كوّن الدولة الإسلامية. إذن هي مسألة تستحق أن نقف عندها مليّاً.

١- هود: ١١٢

الاستقامة في اللغة

الاستقامة: الاعْتدالُ، يقال: اسْتَقامَ له الأَمر. وقوله تعالى: (فاسْتَقِيمُوا إليه) أي في التَّوَجُّه إليه دون الآلهة. وقامَ الشيءُ واسْتقامَ: اعْتدَل واستوى.

وقوله تعالى: {إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم اسْتَقاموا}، معنى قوله اسْتَقامُوا عملوا بطاعته ولَزِموا سُنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم[١].

مفهوم الاستقامة في القرآن:

قال تعالى: {إِنَّ هَـــذَا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}[٢].

"أقوم" صيغة تفضيل مشتقة من "قيام" حيث يكون الإنسان فيها على أحسن حالاته حينما يريد أن يشرع بعمل ما، لذلك فإن "القيام" كناية عن أفضل الصيغ التي ينجز فيها الإنسان الأعمال التي يباشرها، أو يستعد لمباشرتها. "الاستقامة" مشتقة أيضا من مادة "قيم" وهي بمعنى الاعتدال والاستواء والثبات. وبما أن "أقوم" هي "أفعل تفضيل" بمعنى الأكثر ثباتا واستقامة واعتدالا، فإن معنى الآية أعلاه، هو أن القرآن الكريم يمثل أقصر وأفضل طرق الاستقامة والثبات والهداية وبهذا فإن الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار، يتمثل بالعقائد الواضحة، القابلة للهضم والإدراك والفهم، والتي تكون أساسا للعمل، وتعبئة الطاقات الإنسانية باتجاه الإعمار والبناء. العقيدة الأقوم هي العقيدة الخالية من الخرافات والأوهام، وهي التي توائم بين الإنسان وعالم الوجود والطبيعة من حوله[٣].

المحور الأول: موجبات الاستقامة

نقف في هذا المحور على أهم الموجبات الكفيلة برسم خارطة الطريق أمام الإنسان كي يتحلى بالاستقامة والثبات على دينه وهي:

١- ابن منظور، ج ١٢ ، ص٤٩٨

٢- الإسراء: ٩

٣- الشيرازي، ج٨، ص٤١٤

١- شرح الصدر: قال تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}[١]. فان من أهم اسباب الاستقامة على الدين هو ذلك المدد الإلهي الذي يحصل عليه الإنسان والذي عبرت عنه الآية بشرح الصدر فإنه بمثابة الدليل الذي يعين الإنسان في تمييز الحقائق، فمن شرح الله صدره للإسلام وهو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره ووسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل ديني صالح، فلا يلقى إليه قول حق إلا وعاه ولا عمل صالح إلا أخذ به، وليس إلا أن لعين بصيرته نوراً يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه، خلاف من عميت عين قلبه فلا يميز حقاً من باطل ولا صدقاً من كذب[٢]، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٣].

وفي آية أخرى يصف القرآن شرح الصدر بالنور الذي به يهتدي الإنسان، قال تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٤]. ويضرب لنا القرآن المجيد صورة رائعة في تأثير المدد الإلهي في استقامة الإنسان وذلك في قصة سحرة موسى، وكما جاء في الروايات وكتب التأريخ استقام أولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفذ فرعون تهديداته، ومثل بأجسامهم تمثيلا مروعا، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل. وهكذا كتبت أسماؤهم مع أحرار التاريخ بأحرف من نور، وكانوا كما وصفهم المفسر الكبير العلامة الطبرسي: "كانوا أول النهار كفاراً سحرة، وآخر النهار شهداء وبررة. ولكن مع الالتفات إلى أن مثل هذا الانقلاب والتحول والاستقامة ليس ممكناً إلا في ظل الإمدادات الإلهية، ومن المسلَّم أن كل من اختار سلوك طريق الحق، شملته هذه العنايات الربانية، والإمدادات الإلهية."[٥]

١- الأنعام: ١٢٥

٢- الطباطبائي، ج٧ ، ص ٣٤٢

٣- الحج : ٤٦

٤- الزمر: ٢٢

٥- الشيرازي، ج٥، ص ١٦٢

٢- كثرة الاستغفار: فمن الأمور التي تكون حجر عثرة أمام الإنسان وتحول بينه وبين الاستقامة والثبات على دينه هو كثرة ما يرتكبه من المعاصي والذنوب، لذا وجَّه القرآن الكريم بكثرة الاستغفار لإزالة هذا العائق من أمام الإنسان، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ}[١]، وقال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٢].

٣- ذكر الله: فالقرآن الكريم يقرر أصلا عاما يسهم في ثبات القلب واستقامته، ألا وهو المداومة على ذكر الله تعالى، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.[٣]

٤- مراقبة النفس: تعد النفس طريق الإنسان إلى ربه فلابد إذن من مراقبة هذا الطريق جيدا وأن لا يغفل عن غايته الحقة، فإنه سبحانه هو الغاية، ونسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق فمن نسي ربه نسي نفسه، و لم يعد لغده ومستقبل مسيره زاداً يتزود به ويعيش باستعماله وهو الهلاك، وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[٤].

٥- علو الهمة: فعلى الإنسان حتى يوفق للثبات والاستقامة أن يكون صاحب همة عالية، فإن الإنسان إذا علت همته، فإن أعضاء البدن تنسجم مع الهدف المقصود، وهذا ما يشير إليه الحديث: "ما ضعف بدن، عما قويت عليه النية"، وكذلك في هذا البيت:

إذا كانت النفوس كباراً *** تعبت في مرادها الأجسام

أي أن الأجسام تتأقلم مع الأهداف العليا.

٦- الاتباع الفعلي للنبي (صلى الله عليه وآله): قال تعالى: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[٥].

١- فصلت: ٦

٢- النور: ٣١

٣- الرعد: ٢٨

٤- الطباطبائي، ج٦ ، ص ١٦٥

٥- الأنعام: ١٥٣

فإن طريقه (صلى الله عليه وآله) طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى، فأي طريق يسلكه الفرد غير ما رسمته الشريعة المتمثلة برسول الله (صلى الله عليه وآله) وآله الأطهار تؤدي إلى الانحراف عن الله وإلى الاختلاف، والتشرذم، والتفرق، وتزرع بذور الفرقة والنفاق.

٧- المحافظة على الصلاة اليومية: لا ريب في أن الذنب والعمل السيء يُوجد نوعا من الظلمة في روح الإنسان ونفسه، بحيث لو استمر على السيئات تتراكم عليه الآثار فتمسخ الإنسان بصورة موحشة[١]. من هذا فإن تراكم الذنوب يكون من العوائق الرئيسية التي تحول دون ثبات الإنسان واستقامته فلابد من البحث عن أمور تساعد الإنسان في التخلص من هذه الغشاوة والظلمة التي تخلفها الذنوب من هنا يأتي القرآن الكريم ليدلنا على أهم وأعظم عامل يساعدنا في هذا المجال قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـــيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[٢].

فهنا يذكر القرآن أعظم مصداق له الأثر الكبير في طهارة القلب وإعادة بعث النور فيه ألا وهو المواظبة على الصلوات اليومية. ولكن العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهي يهب روح الإنسان لطافة بإمكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدل ظلمات نفسه إلى أنوار وبما أن الجملة الآنفة إن الحسنات يذهبن السيئات ذكرت بعد الأمر بإقامة الصلاة مباشرة، فإن واحدة من مصاديقها هي الصلاة اليومية، وإذا ما لاحظنا في الروايات إشارة إلى الصلاة اليومية في التفسير فحسب فليس ذلك دليلا على الانحصار، بل إنما هو بيان مصداق واضح قطعي[٣]. وما نقل عن أهل البيت (عليهم السلام) في دور الصلاة في إعادة الإنسان إلى جادة الصواب الكثير، ففي روايات متعددة منقولة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) تعبيرات تكشف عن الأهمية الكبرى للصلاة في نظر الإسلام ودورها في استقامة الفرد.

١- الطباطبائي، ج٧ ، ص٨٩

٢- هود : ١١٤

٣- الطباطبائي، ج٧ ، ص٨٩

يقول أبو عثمان: كنت جالسا مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ غصنا يابسا وهزه حتى تساقطت أوراقه جميعا، ثم التفت إليّ وقال: ما سألتني لم فعلت ذلك؟!
فقلت: وما تريد؟! قال: هذا ما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين كنت جالساً معه تحت شجرة ثم سألني النبي هذا السؤال وقال: "ما سألتني لم فعلت ذلك ؟".
فقلت له: و لم يا رسول الله؟
فقال: "إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تَحَاتّتْ خطاياه كما تحاتُّ هذا الورق، ثم قرأ الآية: (وأقم الصلاة . . . إلخ)" [١].
ونقرأ في حديث آخر قال: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أرجى آية في كتاب الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) وقرأ الآية كلها"، وقال: يا علي والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا إن أحدكم ليقوم إلى وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمه. فإن أصاب شيئا بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عد الصلوات الخمس ثم قال: يا علي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم، فما ظن أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات في اليوم أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي.[٢].
٨- مصاحبة الصالحين: فعلى الإنسان أن يختر المستقيمين من الناس ويحرص على مصاحبتهم، لما في ذلك من التشجيع والاقتداء. وهذا ما نلاحظه في نبي الله موسى (عليه السلام) عندما كُلف بمقارعة فرعون، حيث طلب من الله تعالى أن يشد أزره بأخيه هارون، لأن ذلك من موجبات الذكر الكثير لله عز وجل، قال تعالى في سورة طه: {وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً}[٣]. لذا نجد أن مواطن الحسرة يوم القيامة هو تحسر الإنسان على اتخاذه من هو ظال صاحباً له وترك الصالحين، قال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً}[٤].

١- المجلسي،ج ٧٩ ، ص٣١٩
٢- المصدر السابق، ص٢٢٠
٣- طه: ٢٩-٣٤
٤- الفرقان : ٢٧

المحور الثاني : ثمرات الاستقامة

قال تعالى: {وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً}[١].

فنلاحظ بأن الله تعالى جعل الاستقامة قيداً مع الالتزام بمنهج الإسلام الرباني، لنيل المكاسب الروحية والمادية، ومن هنا فإنه عند ظهور الإمام المهدي (عج) تكثر الخيرات والبركات، والأرض تظهر كنوزها. فإذن، إن هنالك ارتباطا متلازما بين الرقي الروحي والتقدم المادي، وبين الاستقامة على طريقة التقوى والمجاهدة. وقوله تعالى في سورة فصلت: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}[٢].

ففي ظل الإيمان والاستقامة يصل الإنسان إلى مرحلة بحيث تنزل عليه الملائكة وتعلمه. وتذكر الآية المباركة سبع بشائر هي نتائج وثمار يقطفها الإنسان المستقيم.

البشارتين الأولى والثانية: وتتمثل بعدم (الخوف) و(الحزن).

البشارة الثالثة: وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

والبشارة الرابعة: التي يتضمنها قوله تعالى: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم في الخير ونعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنة.

البشارة الخامسة: قوله تعالى: ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم أي في الجنة.

البشارة السادسة: فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: ولكم فيها ما تدعون.

أما البشارة السابعة والأخيرة: فهي أنكم ستحلون ضيوفا لدى البارئ عز وجل وفي جنته الخالدة، وستقدم لكم كل النعم تماماً مثلما يتم الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: نزلاً من غفور رحيم.

إن التدقيق في هذه البشائر ووعود الحق من قبل البارئ جل وعلا، والتي تعطى للمؤمنين بواسطة ملائكة الله الكرام، سوف تحرك في وجود الإنسان.

١- الجن: ١٦

٢- فصلت: ٣٠-٣٢

الدوافع نحو الإيمان والاستقامة، وتجعل الروح البشرية تعشق السير في هذا الطريق.
وفي ظل هذه الأجواء المضيئة بالطاعة والبشرى، استطاع الإسلام العزيز أن يصنع من عرب الجاهلية مجموعة نموذجية لا تتوانى عن الإيثار والتضحية بالغالي والعزيز في سبيل منعة الإسلام والمسلمين وانتصارهم على كل المشاكل والعقبات[1].

تتمة: نموذج من إستقامة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وثباته

لقد نَهضَ النبيُ محمّد (صلّى الله عليه وآله) بمفرده في وجه الشرك والوثنية، وسعى بعزمٍ راسخٍ وإرادة قوية إلى تحقيق هدفه واستقام وثبت أمام جميع المشكلات والمصاعب.
لقد واجَهَت نبوّةُ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله) طوال مدّة ١٣ عاماً مئات بل آلاف المشاكل الكبيرة المضنية ولكنه لم يُظهِر من نفسه أدنى ضَعف وتردّد إنه كان مكلّفاً من جانب الله أن يستقيم هو وأتباعُه في طريق هدفه المقدس.
يقول تعالى في القرآن الكريم في هذا المجال: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[2].
لقد بلّغ رسولُ الاسلام مبادئَ دينه الحنيف طيلة مدة نبوّته، بل وأعلن عنها في بداية دعوته بصورة قاطعة وصريحة، و لم يرهب كثرة الأعداء و لم يستوحش من قلّة الأنصار والمؤيّدين.
عندما نَزَلَ عليه قولُه تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[3]، وكُلّفَ بأن يدعَو عشيرته الأقربين إلى دينه علانية، أمَرَ عليَ بن أبي طالب (عليه السلام) بأن يُعدّ طعاماً ويدعو أقربائه إلى منزله، ليدعوهم بعد الطعام إلي الإسلام، فأعدّ عليٌ طعاماً كما أمرَ النبي ودعا ما يقرب من أربعين شخصاً من أقربائه، فنهض بعد فراغهم من الأكل ليتحدّث إليهم .. فمنَع أبو لهب عن ذلك، و تفرق الجمعُ .
يقول عليُ بنُ أبي طالب: فأمرني رسولُ اللهِ أن أصنعَ طعاماً مرة أُخري ففعلتُ، وأيضاً لم يسمحوا له بالتكلّم، فكرّر الدعوةَ ثالثة، وفي هذه المرّة نهضَ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)

١- الشيرازي، ج١٥ ، ص ٤٠٤
٢- هود : ١١٢
٣- الشعراء : ٢١٤

ثم تكلّم فقال: (يا بني عَبدِ المطلب إنّي وَاللهِ ما أعلمُ شابّاً في العَرَب جاءَ قومَه بأفضل مِمّا قد جئتُكم به، قَد جئتُكم بخيرِ الدُنيا والآخرة، وقد أمَرَني اللهُ تعالى أنَ أدعوَكم إليه فأيُكم يؤازرُني على هذا الأمرِ على أن يكونَ أخي ووصيّي وخليفتي فيكم)، فأحجَم القومُ عنها جميعاً وقلت وإني لأحدَثُهم سِناً وأرمصُهم عيناً وأعظمُهم بَطناً وأحمشهُمْ ساقاً:

أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عَليه، فأخذ برَقَبَتي ثم قال: إنّ هذا أَخي ووصيّي وخليفتي فيكم فأسمَعُوا له وأطيعُوا، قالَ فقامَ القومُ يضحَكُونَ فيقولون لأبي طَالبٍ: قد أَمَرَكَ أن تسمَعَ لابنِكَ وتطيع.

لقد استخدَم المشركونَ لِثَنْي الرسولِ الأكرم محمّد (صلى الله عليه وآله) عن أداء رسالته والمضيّ في دعوته كلّ وسيلة ممكنة، ولكنّ النبيّ بقي صامداً ثابتاً في الطريق.

فذات يوم ـــ مثلاً ـــ جاءَ رؤساءُ قريش إلى أبي طالب عمّ النَبي فقالوا: يا أبا طالب إنّ لك سِناً وشَرَفاً وإنّا قد استنهيناك أن تنهى ابنَ اخيك فلم تفعلْ وإنا واللهِ لا نصبرُ على هذا مِن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفّه عنا أو ننازلَه وإيّاك في ذلك حتى يهلك أحدُ الفريقين أو كما قالوا ثم انصرفُوا عنه[1].

فعظم علي أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم له، و لم تطب نفسه بإسلام رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وخذلانه، وبعث إلى رسولِ الله (صلى الله عليه وآله) فأعلمَه ما قالت قريشٌ وقالَ له: ابقِ على نفسِك وعليّ ولا تحمّلني من الأمر مَا لا أُطيق، فظنّ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) أنه قد بدا لعمه، وأنه خذَلَهُ وقد ضَعف عن نصرته فقالَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «يا عمّاه لو وَضَعوا الشمسَ في يميني والقَمَر في شمالي علي أن أترُكَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَه اللهُ أو أهلك فيه ما تركتُه»[2]. لقد واجهَ رسولُ الإسلام عالماً من الكفر والشرك، وواجَهَ في جميع مراحل دعوته مئات المشكلات، والمتاعب، فقد آذوه في نفسه وأهله عَذّبوا أنصارَه و أتباعه القليلين بصنوف التعذيب حَبَسوه وأهله وأتباعه في شعب أبي طالب وحاصروهم اجتماعياً واقتصادياً أشدّ المحاصرة وكان معرّضاً دائماً لخطر الاغتيال والقتل، فقد قرّروا مراراً قتلَه والقضاء عليه، ولكنّه بقي يواصل مهمّته رغم كل ذلك بصبرٍ وثبات وصلابة واستقامة حتى انتصرَ علي أعدائه ومعارضيه ورفع لواء التوحيد في العالم، وبهذا أعطي للمسلمين والموحّدين والمصلحين دروساً بليغة في الصبر والاستقامة والثبات.

١- ابن الأثير، ج٢، ص ٦٢

٢- المصدر السابق

الخاتمة

في ختام مقالتي هذه أود أن ألفت الأنظار إلى أن هناك مستوى آخر من الاستقامة يتمثل باستقامة الأمة فإن كل ما ذكر سابقا يدور حول الاستقامة الفردية ولكن لو دققنا جيدا نجد أن الغرض الأكمل من بعثة الأنبياء والأوصياء والمرسلين، هو تكوين أمة تدعو إلى الخير: تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، كما في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[1]. وهذا الغرض لا يتم إلا من خلال البيئة الإيمانية الصالحة، ومن هنا فإن المنهج الإسلامي يريد منا أن نقيم الجو الملائم، لإنبات القابليات المستبطنة في بذور هذه الأمة.. نعم، إن الفرد المؤمن بإمكانه أن ينبت إنباتاً مستقلاً، ولكنه إذا ما وضع في بيئة إيمانية فسيشتد نموه.. ولهذا فإن الإمام المهدي (عج) في حركته المباركة، يهيئ المناخ المناسب لنمو كل القابليات البشرية، وبظهوره تكمل عقول العباد، وتشتد الحركة التكاملية إلى الله تعالى.

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٣- ابن منظور، أبيالفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠١٠م.

٤- الشيرازي، ناصر مكارم، **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، مدرسة الإمام علي، قم، ١٣٧٩ش.

٥- الطباطبائي، محمدحسين، **الميزان في تفسير القران**، دارالأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١ه.ق.

٦- المجلسي، محمد باقر، **بحارالأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، إحياء الكتب الإسلامية، ١٤٣٢ه ق.

١- العصر: ٣